قرية سعودية

(ح) وزارة الثقافة، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
وزارة الثقافة
قرية سعودية. /وزارة الثقافة. الرياض، ١٤٤١هـ
ردمك: ٧-١-٩١٢٨٧-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص القصيرة العربية - السعودية أ. العنوان
ديوي ٨١٣.٠١٩٥٣١ ١٤٤١/٧٢٣٥

رقم الإيداع: ١٤٤١/٧٢٣٥
ردمك: ٧-١-٩١٢٨٧-٦٠٣-٩٧٨

طُبع هذا الكتاب
على ورق صديق للبيئة
FSC

جميع الحقوق محفوظة © وزارة الثقافة ٢٠٢٠

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو مكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها تسجيل المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

طُبع في المملكة العربية السعودية

هيئة الأدب والنشر والترجمة
Literature, Publishing & Translation Commission

قرية سعودية

مجموعة من المؤلفين السعوديين

الصُّورَةُ

«حَسَن حِجَاب الحَازِمِي»

هكذا تأتي الصورة، ثلاثون عامًا، وهي تأتي وحدها رغمًا عنِّي، ولا تغيب.

كان عمري خمسةً وعشرينَ عامًا، لا، بل ثمانية وعشرين عامًا.. لا، بل... لم أعدْ أذكرُ كَمْ كان عمري على وجه التحديد، لكنه كان بين هذين العُمْرَيْن، حين نضجت الفكرة في ذهنِ أبي، وجاء يستشيرني:

– علي بَلَغ، ولا بُدّ من خِتانه.

قلت: لا بأس المستشفى قريب، والأمور أحسن من قبل.

انتفض أبي كأنّما مسّه طائفٌ من الجِنّ:

– ما هو؟! ولدي أنا يَتْعَلّى سادح ومبنّج؟!! « والله،

والله ما يَتْعلّى وَلْدي إلّا في امواديِ، وقُدّام الناس كلهم».!!

كان القرار صارمًا، ولم يكن لأحد أن يناقشه، نفض أبي إزارَه، ونادى:

- يا مسعود... يا مسعود.

- لبيك، لبيك يا عم أحمد!

- «يا مسعود. شرّق حتى الجبال، وغرّب حتى البحر، ونادِ كل المعارف- ولا تنسى أسميانا- قل لهم عمي أحمد التهامي أبو منصور يقل لكم الله الله!! ختان ولده علي يوم الربوع».

تحرّك مسعود من فوره، وتحرّك كلُّ البيت، وكلُّ القرية، حين أعلن أبي الدعوة بعشر طلقات من بندقيته الصَّدِئَة.

وقبل الموعد بيومين كان بيتنا، وبيوت أعمامي تعجُّ بالضيوف من كلِّ ناحية، وأبي يرقص فرحًا، وينتقل من

بيت إلى بيت يرحِّب، ويذبح، وبيتنا في رهقٍ لا يعلمه إلَّا الله: النار لا تُطْفَأ، والدم لا يجفّ، والسمن، والعسل لا يتوقَّفان عن الانصِباب، وأنا لا أدري منذ متى وأبي يعدّ عُدّته لهذه المناسبة؟! وأظن أنه قضى عامًا كاملًا يجمع الذبائح والذرة، والبُرّ، والدقيق، والسمن والعسل. نسيت أن أخبركم أن صوت الطبول لم يكن ليسكت إلَّا ليبدأ من جديد، وأننا لم نترك بيتًا من بيوت أخوالي، وأعمامي والأسمياء، إلَّا غمرناه ببركة هذا «الود» ساعة، أو بضع ساعة من الرقص، وأننا ربَّما كنا نرقص ثمانِيَ عشرة ساعة في اليوم.

كما أنّني نسيت أن أخبركم أمرًا مهمًّا عن أبي، لقد كان يرقص وهو يجري، وهو يمشي، وهو واقف حتى وهو نائم.

ليلة الشّهْرَة:

التقيت أبي مصادفةً- وأنا منذ أسبوع لا أقابله إلَّا

مصادفة- كان التعب باديًا على وجهه، لكنه كان ينهره ببسمة عجيبة.

- يا أبي لا بُدّ أن ترتاحَ قليلًا.

- من قال إنِّي تعبان؟

- وجهك .

- (خلاص يا منصور بكرة ينتهي هذا «الهود»، وأرتاح بالمرة)، ثم شحذ بسمته العجيبة، وتركني ومضى.

كانت الساعة الثانية، والنصف ظهرًا، و «المطاليب» قد تناولوا غداءهم وقالوا، وأنا وأبي وحدنا تَنْهَبُنا الشمس، ويقلينا التعب، ثم قررت أن أترك كلَّ شيءٍ، وأدخل إلى بيتنا لأرى أمي وإخوتي.

قابلتني أمي عند الباب، قبَّلتُ رأسها، وقبَّلتْ صدري، ثم قالت: «علي مِقيِّل لا تنبّهه..»

- كان علي ينام على «قعادة» صغيرة في نصف

«العُشّة»، رجلاه بارزتان من الطرف الجنوبي «للقعادة» يكسوهما الحناء، ويغطي وجهه بساعدة الأيسر، تأمَّلته قليلًا، ثم فكَّرت أن أزعجه بقسوة.

ضربته بيدي على صدره صائحًا: «الحدّ فيك» انتفض كالملدوغ، وهبَّ واقفًا على قدميه: ها... ها.. مين؟!

قلت وأنا أضحك ملء فمي: لا تخفْ، لا تخفْ، أنا منصور، ولست الخَتّان!

بلع ريقه، ونظر بعينين عاتبتين إلى أمي التي كانت فجيعتها في الحِنّاء أكبرَ من أيّ شيء.

قلت لها، يا أمِّي لا تحزني على الحِنَّاء، فقدما علي مُسودَّة من كثرته.

قالت: « يا منصور (الليلة امشُهرة)، وحناء الليلة ما مِنُّه بُدّ.».

عاد عليٌّ إلى مكانه، كان جالسًا هذه المرة، ورجلاه تتدلَّيَان إلى أسفلَ، ولا تلمسان الأرض، وأمي تجلس

على الأرض أمام قَدَمَيْ عليّ تمامًا، تحمل في يدها إناء الحِنّاء، وتغطي الفراغات التي أحدثتها وقفته بحِنّاء جديد، وأنا جالس إلى جواره أحدّثه عن الغد القريب، وعن حَدّ السكين الذي اقترب:

– أتذكر يا عليّ؟ أتذكر هذا الحَدّ الذي طالما أخافونا به؟ مُذْ كنا صغارًا وهم يهدِّدُوننا بحَدّ السكين، كلما تألمنا من شيءٍ قالوا: «اصبر وراك شفرة.»!

«ياسين عليك تبكي: عاد كيف امختان؟»، وكلما جفلنا من شيء قالوا بصوتٍ واحدٍ «هاااه الحدّ فيك»، وكلما بكينا قالوا بصوت واحد: «الله يستر، وما تفضحونا يوم امختان»، وها أنت تقترب يا عليّ من هذا الحَدّ، غدًا تنتهي من هذا التهديد الذي لازمك عمرًا كاملًا، فالحَدّ فيك، وإيَّاك أن تجفل، وإيَّاك أن ترْمِشَ عيناك، أبي سيقتلك لو فعلت!

قالت أمي: «ولدي رجل من ظهر رجل، ومهو من

اللي يرمشون». .

كان المؤذِّن ينادي لصلاة العصر حين مَرّ أبي، وقال بصوتٍ آمرٍ:

- بعد الصلاة مباشرة إلى الوادي.

نهضت لأتوضَّأ، وقامت أمّي تجهزُ عليًّا، رشّت على رأسه الطِّيب، وربطت له عصابته، وغرست تحتها «البعيثران» و«الكاذي»، وربطت على جبهته تمامًا خمس مسابح من الفُلّ، وناولته إزاره الجديد، و«كوته» الأبيض الجديد، وسيف أبي المعلق، وقبَّلته في خدِّه، وقالت وهي تودّعنا: « الله يحرسكم من العين.».

غصّ الوادي بالناس، وسمعت كثيرين يقولون: إنهم لم يشهدوا لهذا «الود» مثيلًا من قبل!

كان صوتُ الطبول مُدَوِّيًا، والطلقات تصمُّ الآذان، والناس نصفين نصف يتفرج، ونصف يرقص، أمّا الذين يتفرجون، فكانوا يقفون على شكلِ حِدْوة حصان، يتّخذ

«الزَّلّافون» من قاعدة «الحدوة» المغلقة قاعدة لهم، ويقف الراقصون في فتحتها، يبدؤون من بعيد، بعيد جِدًّا، ويدخلونها، ويقتربون حتى يصلوا إلى جوار الضاربين، وظهورهم للجبال، وهم يرقصون عرضتنا الخاصة بنا، التي تهزُّ الجسم كلّه بخِفّةٍ، ورجولةٍ، وكنت أنا وعليّ نرقص معًا قليلًا ونرتاح قليلًا، حتى غابت الشمس، لكننا حين كنا ندخل ميدان اللعب يتغيَّر الجَوّ تمامًا، حيث يحتدُّ صوت الطبول، وتهدِرُ البنادق بصوتٍ واحدٍ مُدَوٍّ، وفاقعٍ، ويهتزّ الراقصون بعنفوان أكبرَ، وبالطبع لم يكن ذلك لأجلي، بل لأجل أخي.

بعد العشاء، وقف أبي في صحن الدار، وأطلق عشر طلقات من بندقيته الصَّدِئَة -وأنا حتى الآن لا أعرف أين كان يخبئ كلَّ تلك الذخيرة- ونادى بأعلى صوت: «الليلة لعب حتى تشرق.».

زغردَتْ أمي من خلف الجدار، وزغردَ معها كلُّ

النسوة اللّاتي يشاركنها البهجة، وهَدَرَتِ البنادق، وسافرتِ الطّلقات في السماء؛ لترسُمَ في جبهةِ الليل نجومًا صغيرة تضيء قليلًا، ثم لا تلبثُ أنْ تنطفِئَ، والتهبت أكفّ «الزّلاّفين»، واستحال الليل نهارًا صاخبًا، ولم يكن بوُسْعِ أحدٍ أن ينام.

اليوم الأخير:

مع تسلُّل أوّل شعاعٍ للشمس من خلف الجبال؛ بدأ الجمع في التحرُّك من بيتنا باتِّجاه الوادي، يتقدّمهم «الزّلّافون»، وهم يضربون ضربة الدِّلع، والناس خلفهم كتلة مزدحمة لا يجرون ولا يمشون، بل يهرولون منشدين:

«يا ذا المعلِّي طاح في شوك النشب.

يا ذا المعلِّي كأنه يضرب في خشب».

وأخي مع الفوج الأول يحمل سيفه، ويأتزر بإزارٍ من الشَّاش الأبيض، ولا شيءَ يكسو جسده غير ذلك

الإزار، ولا أدري كم كان عدد ضربات قلبه إذْ ذاك على وجه التحديد، لكنني كنت أسمعها بقلبي، رغم كلِّ ذلك الصخب.

وحين وصلنا إلى الوادي توقَّف الضرب، وبرز عليٌّ وحيدًا أمام الجمع، مشى قليلًا، ثم توقّف، والتفت إلينا بكامل وجهه، ثم أدخل السيف في غِمْدِهِ، وبَقِيَ ممسكًا به بوضعٍ أُفُقِيٍّ أمام صدره، كمن يتأهَّبُ لانتزاع سيفه من غِمْدِهِ، ثم رفعه بوضعه ذاك، وأمرَّه فوق رأسه، وثبت منتصفه على رقبته من الخلف، وبَقِيَ ممسكًا به بشكلٍ أُفُقِيٍّ يتقاطع مع رقبته، كانت يده اليمنى تتعلَّق بمقبض السيف، ويده اليسرى تعلق بالطرف الآخر، ورقبته قاعدة تقسم السيف نصفين، فبدا كأنه مصلوب!

بدأ الشيخ يلعلع بأعلى صوته: « ألا للا لا الحدّ فيك، ها ها ها الحدّ فيك»، ويضرب صدر أخي بعرض سكين أرى نصلها يلمع تحت أشعة الشمس، كيف لو أخطأ

شيخ القرية، واستقامت السكين؟!

«- ألا لا لا الحَدّ فيك»، ويقترب من أذنيه أكثر، ويصيح بصوته الصاخب: «الحَدّ فيك»، وعليٌّ ثابتٌ على وقفته تلك لا يتحرّك، ولا تَرْمِشُ عيناه، ولا أدري من أين جاء بكلّ هذه الجسارة؟! مع أنني قلت له ليس مُهِمًّا أن ترْمِشَ عيناك أثناء لعلعة الشيخ، لكن المهمّ ألَّا ترمشَ أثناء الختان، وأخشى ما أخشاه أن يفقد سيطرته عليها إذ ذاك، فيضيع تعبه هذا كله، وفي تلك اللحظة بالذات حين كانت هذه الفكرة تسيطر عليَّ، اقترب أبي مني، وهمس في أذني:

«- خُذِ البندقية، وأطلِقْ ثلاث رصاصات من فوق رأس عليّ، وقل له في البندقية ثلاث أخرى، لو رمشت، فهي في رأسك، ولو لم ترمش، فهي من فوق رأسك.».

رفضت هذا العرض بكلِّ جُرأة، ولأول مرة أقول لأبي «لا» بهذه الجهارة، ولم يكن لديه فرصة للتفكير،

فانطلق كالسهم ووضع البندقية على كتف أخي، وأطلق ثلاثَ رصاصاتٍ متتالياتٍ بجوار أذُنِ عليٍّ اليمنى، وفي الأذن الأخرى كان الشيخ يلعلع:» ألا لا لا الحَدّ فيك»، والخَتّان تلمع سكينه في يده، وعينا عليٍّ شاخصتان، ولا أظنه يعي شيئًا، وكأنه لا أحدَ حوله، تذكرت كلمة أمي: «علي رجل ولد رجل ما هو من اللِّي يرمشون». .

ثوانٍ معدودة بعدها كان الدم يقفز، وعليٌّ مسلوخٌ بشكلٍ فاجعٍ، وأبي يغطيه بإزاره الجديد الذي لم يعدْ جديدًا، وعينا عليٍّ شاخصتان، لم ترمشا حتى بعد أن انتهى كلُّ شيءٍ، وأبي يطلق بقية رصاصاته من فوق رأس عليٍّ، ونحن عائدون، ومن جديد:

– « ياذا المعلِّي طاح في شوك النشب.

ياذا المعلِّي كأنه يضرب في خشب». .

كان عليٌّ لا يزال ممسكًا السيف بوضعه ذاك، وأنا أحمله من الجهة اليمنى، وأبي يحمله من الجهة

اليسرى، وعيناه شاخصتان لا ترمشان، والدم يتسرَّب بغزارة، وأبي يكاد يطير؛ لأنَّ عَيْنَيْ عليٍّ لم ترمشا، حتى حين وصلنا إلى البيت، ونام عليٌّ على نفس «القعادة» لم ترمش عيناه، وكان لا بُدّ أن أبكِيَ وأنا أغلقهما بيدي. وأن تصيح أمي بأعلى صوتها: «عين ما تصلي على النبي قضت على ولدي»، وأن يُغمى عليها، وأن يقترب أبي من عليٍّ بجسارة يجسّ جبهته المعروقةَ الباردةَ، وتغرق عيناه في بحيرات من الدمع يأبى عليه أن يَسِحّ.

حَدّ الأَسفَلت

«عبد العزيز مشري»

أقوالٌ تتناسج في المجلس، وأصواتٌ تكاد تلمَسُ سقفَ الخشب، بالأيْمَان والحِلفان، وبين لحظةٍ، ولحظةٍ تزداد لفائفُ الدّخان الصّاعد من سجائر المُدخنين المتضاربين بالكلام في شأنٍ يبدو كبيرًا.

رجلٌ قليلُ الكلام، في الجزء الأخير من العُمر، يعتقل عقالًا ليلزم عمامته على الرأس، مال إلى الخلف، بنظّارتين لا شك في أنهما طبِّيَّتَيْن بذراعَيْن سَوْداوَيْن، شدّتا خلف أذنيه بخيطين خوف الانزلاق، تبدو العينان المتحركتان سريعًا كعَيْنَيْ قِطّ حَذِرٍ.

فوق الثوب الأبيض الترابي معطف مندلع الصدر، وكان يعني بلا تردد للناظر أن أحدَ «أزاريره» قد شُدّ في

غير ثقبه فانقطع.

لزم «مطير» ركن المجلس، وأهمل يده الممدودة فوق ركبته كالعصا القصيرة، وقال ببطء الواثق:

– يا جماعةَ الخير، الطريق إلى بيت «سعيد» من عهد الأجداد معروفة للصغير، والكبير.

– معروفة للرّجْل الهابطة والصادرة، وليست معروفة للسيارة.

– ما كان عند الأوّلين سيارات.

– يعني من حقّ سعيد اليوم؛ أن يفتح للسيارة خطًّا.

كانت الأقوال تتصارع حول هذا المعنى، وسُمِعَ على الباب الداخلي نقرة، فقام صاحب الدار، وجاء بإبريق شايٍ كبيرٍ ذي معلّق، عاد وجاء بصَحْنٍ في حوضه فناجين زجاجية، قعد على ركبةٍ ونصف، وانهمك يصبُّ الشاي في الفناجين، ويحاذر ألَّا يسلخَ يَدَهُ.

تطلَّع إلى الجالسين، فرأى أكبرهم «مطير» فقدّم له فنجانًا. على يمين الداخل، وقُرْب سريرٍ خشبيٍّ متهالِكٍ بأثرِ البطاطين والبُسُط القصيرة العتيقة والملوّنة؛ قعد صَبِيٌّ، يداعبُ قِطّةً نِمْرِيّة الفرْو كبيرة، تتملَّص من يديه، وتحوم، ثمّ تعود بلُطف، وتقعد في حِجْرِهِ الدافئ، تجرجر «قرقرتها» المسموعة، فيزيلها بعنف؛ خوفًا أن تسرق ما تعلّمه من قرآن (كما تحذره الجَدّة).

كان «مطير» يرشف الشاي بصوتٍ عالٍ، ويرسل نظراتٍ مقنّنَةً إلى الصّبِيِّ والقطة، وكان الجالسون ينصرفون في انشغالٍ بالفناجين الساخنة، ويذهب بعضهم يدخّن، وكأنهم قد اتفقوا على صلحٍ ما؛ فأسكت الضجيج.

لم يخلُ المجلس من فقيهٍ يكتب الصُّكوكَ؛ وسينال بعد الوفاق؛ ثمن التعب، والحبر والورق، وسيكتب في ذيل «الحُجَّة» الموثّقة شهادته ضمن الشهود، ويضيف:

«كتبه مغرم بن علي، غفر الله له ولوالديه» بخطٍّ بين «الفارسي والديواني».

أما وأنه يدرك إدراك العالم أن «مطيرَ» ضعيفُ النظر، وقد تعرَّض مع هذا العمر إلى هيجان جَمَلِهِ الحاقِدِ ذاتَ يومٍ قريبٍ، فأهلك بعض ضلوعه، وكاد « لولا عناية الله» يعجنه بكلِّ قوَّته، فإنه سيقوم بالورقة إليه، ويحبِّر إبهامَ يدِهِ اليُسرى ليثبتَ شهادته ضمنَ الحاضرين.

كان القوم بالاتفاق قد سمعوا ملء الآذان من «مغرم» أن سعيدًا يستحقُّ إيجادَ طريق للسيارة إلى بيته، وكل بيت كان له طريق للرجل والحافر؛ سيغدو له طريق للسيارة لو أراد، «ويشهد الله، وهو خير الشاهدين».

قام كلٌّ إلى شأنِهِ، وكان خارج الدار يحتقنُ بضبابِ الشتاءِ، وصاح أحدُهُم راجيًا أن يخلف هذا الضباب المطر: «فرج الله قريب!» وتقافزت النظرات إليه داعية راجية!

وحينما دلفت الأقدام إلى خارج الساحة، كانت تلك القطة تهزُّ ذيلها، وتقود خلفها ثلاث قطط صغيرة كثيرة المُواء. وإلى قرب قرصٍ أخضرَ كبير من التين الشوكي، قعد واحدٌ يريق الماء ويوزِّع الالتفات؛ ليطمئِنّ إلى أنهُ لا أحدَ حوله، ولا خوف على حوافّ الثوب المُتَهدِّل من البَلَل.

حيث كان «مطيرُ» قد خرج مع الخارجين، واتَّبع قدميه اللتين تعرفان كلَّ طرق القرية بالخطوة، وهبط إلى الوادي المقابل، وجعل بعينيه المختبئتين خلف زجاج النظارة، يطوّف مزرعته، فتختلط قدماه بالأعشاب، والنباتات المتطفِّلة التي عاثت بالأرض، وها هو بناء المدرَّج الذي لا يكاد يُرى من تشابك النباتات؛ يهدم خطوة القدم، ويجعل أنّة «مطير» تكاد تغلِّفُ كلّ المساحة من حوله.

وتستبطئ زوجته «شريفة» عودته، فتحدّث خاطرها

بحديث كان «مطيرُ» يحدّثها به في الصباح؛ عن رغبته في زيارة المزرعة المهملة في الوادي، وتدفعها نيتها على ذاك المكان؛ عَله يكون قد تأخَّر لسبب.

عندما بلغ صوتها أقرب دُور القرية، كان الرجال يحملونه من تحت كتفيه، ويقعدونه على لَيِّنِ الفراش في رُكْنِ الدار، ويستدعون «ابن حسين» مجبّر العظام؛ ليعيدَ مفصلَ اليَدِ إلى مكانه، يوصيه بالسمن والبيض، وكلّ ذي طعم مُرّ، وينهاه عن التمر، وما حلا طعمه من الطعام، ثم يكرِّر الوصية على «شريفة» المسؤولة الأولى عمّا يحدث لليَدِ المكسورة من خَلَلٍ.

وبما أنّ «ابن حسين» مجبّر الكسور، لم يمدّ يَدَهُ ليقْبِضَ «وسخ الدنيا» من الريالات، فلن يقبضَ من «مطير».

زار أهل القرية مطيرَ أفرادًا، وغير أفراد، وكانت «شريفة» تحرص على اليَدِ المعلّقة في الرقبة بالقماش

الأبيض المُنَدَّى بالسمن، ونتن البدن الراكد في الفراش؛ فتجعل للبخور في البيت عجاجًا، أكثر ممّا تفعل عند نفاسها. وكانت تحاذر أن تهمل دخان الحطب الحارق؛ لكي لا يأتي إلى عَيْنَيِ الزوج الضعيفتين، فتشبُّ نارها على العجين حين وقت النوم، وكان هذا ما يسهرها بعد نوم كلِّ العيال.

اشتهى «مطير» حبَّةَ تمرٍ مع القهوة، فأبت «شريفة» وقالت: «وين أنت يا مخلوق؟ ابن حسين منعك عن التمر!»، وقامت إلى الداخل، وجاءت بحافة من خبزة العيال، وعليها صفار بيض تملأ لمعته العين، وقالت تطمئنه: «بعد أيام تطيب، وتأكل الحلى، لا تعجل».

– «يا شق بطنك يا شريفة».

هكذا صرخت زوجة «مطير» حين باغتها، وباغت زوجها وعيالها الخبرُ، فقد جاء رجلٌ غريبٌ عن القرية، وسأل عن دار «مطير السعدوي» حتى دخل من العتبة،

وقعد إلى جانب رجلٍ كبير السِّنِّ، يضع على عينيه نظارة بزجاجٍ أبيضَ مكبّر، وقرأ عليه ورقة صغيرة، في يده، علم «مطير» بعدها أن عليه ترك بيته، والبحث عن سكن بديل يؤويه، فـ«خط الأسفلت» تقرر أن يأتي على داره، وكما سمع عمَّن حدث لهم مثل هذا؛ فإن التعويض بالريالات سيبلغ جيبه ذات يوم، غير أن وضع الحال، وندمه على تاريخ حياته الذي سيُذْبَحُ منذ الطفولة في داره مع زوجته وأولاده، جعل قَطْرَ عينيه يتحدَّر من خلف الزجاجِ بصمتٍ.

الزِّافِر

«عبد الله ساعد المالكي»

انطلق كسهمٍ عبْر الباب المُشْرَعِ نحو (الزَّافر)*، المنحوت من شجر العرعر المُزَيّن بالنقوش الذي يتوسّط دارنا منذ أمَدٍ بعيد، وتلتقي عند هامته أطرافُ المرابيع الخشبية التي تنهض بالسقف.

أسند ظهره إليه متربِّعًا، وتناول عمامته، فردها بخِفَّة، ثم بَرَمَها كحبلٍ، وأحاط بها ذاتَه مُوثقًا جسدَه النحيلَ إلى العمود الأخرس.

أهْتَمُ الفمِ، لفحت وجهَه الشموسُ؛ فأضحى أقربَ إلى السّواد، يتصبَّب عرقًا، ويتحزَّم بخنجرٍ صغيرٍ بَرَزَ شيءٌ من سَلّتِهِ خارج غِمْدِهِ، بينما التصقَ ثوْبُهُ الخَرق بجسده الهشّ، وقد بلَّلَهُ العرقُ.

* الزافر: العمود الرئيس للدار

أخذ يجيل بصرهُ في أنحاء المنزل، يتفقّد زواياه، ويبحث عن وجوه ساكنيه وسط ذهولنا أنا، وشقيقتي الوحيدين حينذاك بالدار.

– أين أبوك يا فتى؟ سألني بحِدَّةٍ، فلم أجِبْهُ، بل اقتربت منه بحذر، بينما انزوتْ شقيقتي في زاوية قَصِيَّةٍ من الدار؛ ترتعد فرقًا، وقد تلبَّسها الذهولُ والصمتُ، قلت له بحزْم: بل ماذا تريد أنت؟ ولماذا تربط نفسك هكذا وسط بيتنا؟ لم يُجِبْ، ولاذَ بالصّمت.

بعد بُرْهة، وهو يتأمّل العُقْدة التي ربطها حول وسطه، وأحكم وثاقها عند سرته، أعاد عليَّ سؤالَهُ، بينما شرع يسوِّي جِلْسَتَهُ ويتهيَّأ لمكوثٍ طويلٍ.

أجبت: إنه في الوادي، وأضفت مؤكّدًا أنه على وشك أن يعود، ثمّ عدت إلى زاوية شقيقتي، وجعلت أَهَدِّئُ مِنْ رَوْعِها، أنهضتها، وسحبتها برفْقٍ من يدها إلى الخارج تاركين له الدار خاليةً.

ومنْ فوق حَيْدٍ صخْرِيٍّ قريبٍ، يُشرف على مزارع القرية المُتراصَّة في التصاقٍ حميمٍ كتجاعيد الجبين، بسفوحها الخضراء المليئة بأشجار العرعر، والعتم واللوز، والتي تطلُّ على ربوع تِهامة البعيدة المُحتجبة سماؤها بطبقاتٍ من السَّدِيم؛ أشرفنا نستطلع قدومَ والِدَيْنا، لمحت أبي، ومن خلفه أمي يسيران بخطًى وئيدةٍ، صاعِدَيْنِ النّقبة الصَّخْرِيّة المتعرِّجة إلى قريتنا، عندما اقتربا تلقيناهما بقلقٍ في نصف المسافة.

كان أبي محمّلًا بالتعب، يَنِزُّ عرَقًا، ويحمل على عاتقه عصدة كبيرة من قصب الذرة، بينما تحمل أمي على ظهرها عصدة أخرى مثلها، وتسير الهُوَيْنَى خلفه منحنيةً تكاد تلامس جبهتها سطح الطريق.

قرأ والدي في وجهينا صورة لخطبٍ ما، توقَّف، وقال في تعب موجِّهًا حديثه إليَّ: خير يا بُنَيَّ ماذا حدث؟ ولماذا تقفان هكذا في عزّ القائلة؟ وأضاف بغضب:

وشقيقتك مالها؟! لماذا تمسك بيدها هكذا كأنها ستفرُّ منك؟!

– هناك رجلٌ في الدار قلت له على عَجَلٍ، عندئذٍ وقفت أمي في مكانها دون أن ترفع رأسها، أو تضع حملها، بينما واصل أبي سيره دون أن يعلِّقَ بكلمة.

مضينا خلفه، ونحن نوشك على بلوغ سدة دارنا السفلية حيث مأوى البهائم، ألقى بعصدة الذرة جانبًا دون أن يقف، وصعد الدرجات الصَّخْرِيّة بخِفّةٍ.

أضفت بقلق: إنه مربوط! وأضافت أختي، وهي تنهج قائلة: ربط نفسه بعمامته في (الزافر).

أرسل أبي نحوي نظرة جانبية قلقة دون أن يعلق، ودَلَفَ إلى داخل الدار، ونحن خلفه متعلِّقان بأطراف ثوبه الذي تفوح منه رائحة الشمس، وتراب المزارع.

كان الرجل لا يزال مربوطًا هناك، بينما الذباب يغشى أطرافه ويذبُّه عن نفسه بيديه الطليقتين، وقد بَدَتْ

صلعته تلتمع، وتَنِزّ بعرقٍ خفيفٍ.

شاهت نظراتِهِ، وتعلَّقت بوجهِ أبي الذي لم يندهشْ كثيرًا، أو تبدر عنه حركة تَنِمُّ عن غضب خلافَ ما توقعت، بل ألقى عليه السلام، وبرك بجواره، وشرع يحلُّ عنه وَثاقَهُ، بينما الرجل يتمنَّع بوضعِ كفِّه مضمومة فوق العقدة التي عقدها، وينظر في وجه أبي، ويكرر كلمة واحدة (أنا دخيلك) بينما أبي يحاول فك العقدة، ويبعد قبضته الممسكة بها بإحكام، ويردّد على مسامعه: أبشر، أبشر!

بَقِيَ الرجل يكرّر كلمته الوحيدة، ويصغي كمنْ يريد أن يتأكّد ممّا يسمعه، وأبي يردد بصوت أكثر حِدَّة: قلت لك، أبشر... أبشر ويستعجل في فكِّ عقدة العمامة.

دلفتْ أمي بعد أن ألقت بحِمْلها عند سدة الباب، وشهقت بعُمْقٍ لمرأى الرجل، وهي تتراجع خطواتٍ إلى الخلف، وقد وضعت يدها على صدرها، وارتسمت على

تقاسيم وجهها المُجْهَد دهشة تعجّب عميقة! ووقفت بعيدًا ترقب بُرْهة، ثم عبرت بحذرٍ إلى أقصى الدار!

أطلق الرجل أخيرًا عُقدة العمامة من قبضته، وحلّها أبي بخِفّة، وأعاد إليه وضع عمامته على رأسه، ثم أنهضه، وتقدم به يقوده كطفل حتى أجلسه في صدر (الحائر)*.

ودون أن يعاتبه بكلمة، أو يسأله عمَّا فعل، جعل يسأله عن دياره، وعن بَنِيه، وعن قبيلته، وبينَ فَيْنَةٍ، وأخرى ينادي رافعًا صوتَه، موجّهًا حديثَهُ إلى أمي داخل الدار؛ يستحثُّها على الإسراعِ بالقهوةِ، وطعام الغداء.

بعد أن شَرِبَ القهوة، وتناول أقراصًا من الحِنْطَةِ أعدَّتْها أمي على عَجَلٍ، وقدَّمتها إلى جانب صينية صغيرة من سمن البقر فاحت رائحته في أرجاء البيت، قال الرجل، والحزن ينهش تقاسيم وجهه القروِيّ الأسمر:

أخطانا صيف هذا العام، والذي سبقه؛ أهلكه البرد والصقيع؛ فلم نحصد شيئًا، فكانت الضربة قاصمة، بعتُ

* الحائر: المجلس الكبير.

الثَّوْرَ، والبقرةَ والحمارَ، وغُنَيْمَاتٍ كانت ابنتي تسرح بها، اقتَنَيْنَا بأثمانِها حولين كاملين، ولم يعدْ بيدي شيءٌ كي أبيعَه، مضَّنا الجوع، وأنهك أجسادنا، وجئتك قاصدًا لعل، وعسى، والحال كما ترى والسلام.

وقلب كفيه في الهواء، والتمعت في محجرَيْه دموع بدأت تتحدَّر؛ وهو يرقب بحذرٍ ردّات فعل أبي، وتقلّبات تعابير وجهه.

لم يردّ عليه أبي كما هي عادة أبناء القرى، ولم يتفوهْ بكلمة، بل نهض إلى (الكمر)* المعلّق خلف باب المقصورة الداخلية حيث ينام، استخرجه، والتمعت أزراره في ضوء الشمس بألوانها المتعددة الزاهية، وشرع يفكك أزرارًا داخلية لجيوب مبطّنة لحزامه الأثير الذي يضعه فقط عندما يسافر إلى الطائف أو إلى مكة للحج، ويتباهى بسماكته، وفخامة جِلْدِه المصنوع منه، وبالنقوش التي أبدعها عليه الخرّاز في سوق البخارية

* الكمر: حزام جلدي له جيوب.

بالطائف.

نثر محتوياته أمام عَيْنَيِ الرجل، وبين يديه، فتناثرت الدراهم الورقية من مختلف الأحجام والألوان، تلك الحمراء فئة المئة، وتلك الخضراء فئة الخمسة ريالات، وتلك الرصاصية فئة العشرة، والبُنِّيَّة من فئة الريال.

لمَّها الرجل بخِفَّةٍ، ووضعها دون عَدٍّ، يحشرها حشرًا في الجزء الذي يعلو سُرَّتَه، ما بين قميصه الرَّثّ، وجسده المتعرِّق النّحيل، وقد افترَّ ثغرُهُ الأهتمُ عن ابتسامةِ رضا، ثم نهض، وعظامه تطقطق.

شيَّعه أبي حتى باب الدار مودّعًا، عندما غاب استدار نحونا وزَفَر بعُمْقٍ، وهو يتأمّل حزامه الخالي المفكّكة أزراره، ثم ألقى بجسده المُنهك طرف الدار، وقال بتأثُّر بالغٍ، وهو يجيل نظره بالسقف الخشبي الذي كسته حُلَّة سوداءُ من أثر دخان المواقد عبْرَ السنين: نسأل الله العافية! ثم أسلم جفنَيْهِ لغفوةِ الظهيرة.

قَلْبُ امْرَأةٍ

«علي الشدوي»

قالت لي أختي: لقد حدث ذلك منذ سنوات طويلة.

إنها تمُطّ المدَّة، وأنا لا أتخيّل ذلك، والآن وأنا أنظر إلى الوراء أشعر كما لو كنت ذلك الطفل الذي يراقب أحمد الديك وزوجته.

ففيما هما يتهيآن للإفطار سمعت خُوارَ ثَوْرٍ، ثم اخترق المكان صوت دربكة، وفي لمح البصر تحوَّلتِ الدربكة إلى ثَوْرٍ هائجٍ يتّجه نحوهما مباشرة.

انبطحت زوجته، وعيناها مغلقتان بإحكامٍ، ثم فتحتهما، ومن تحت إبطها راحت تراقب زوجها وهو يتسلق السِّدْرَةَ؛ بينما ربض الثَّوْرُ كأنما ينتظر نزوله.

هبطت إلى ذاكرتي محمّلًا بأوّل مرة سمعت أن الثور نطحه وبالمرات التي تلتها، استغربت من أنه لم يفكر في بيعه، بل احتفظ به كَنِدّ، يدعوه من بعيد باسمه (صبيح) كما يدعو رجلًا، ومع مرور الأيام، كنت أسمع أهل القرية يقولون إن العلاقة بينهما ليست مجرَّدَ علاقة حيوانٍ بإنسانٍ، بل علاقة فيها شيءٌ شبيهٌ بالرّفقة بين نِدَّيْن، وإنها رفقة تزداد متانةً مع الجهد الذي يبذلانه معًا أثناءَ حَرْثِ الأرض، أمّا نحن الأطفال، فقد شرعنا نمثّل دوْرَ الثَّوْرِ صبيح ومالكه الديك.

الشخص الوحيد الذي أَلِفَهُ الثَّوْرُ من كلّ أهل القرية هو زوجته، لم يحدث قط أن أصدر أيّة نأمة، وهي ترعاه، أو تسقيه أو تقوده، وما يشاهد أحدًا حتى يتبدّل، لكنها تمسك بخِزَامِه، فيهدأ.

من أعلى السِّدْرِ راقب جمالها المستخلص من كلّ طيور القرية، ورآها كملكةِ النَّحْل متزيّنةً بفستانٍ أصفرَ،

وأسودَ وهي تقترب.

مسحت ظهر الثَّوْرِ، وتطلَّعَتْ إلى أعلى.

قالت: انزل يا....

قال: قولي يا الديك...

أضاف وهو يكاد يموت من الضحك:

ـ إنه ثور، وأمام الثور يا روح ما بعدك روح.

عادا يفطران، وهما جزءٌ من مشهد طبيعيّ، والأرض مفروشة بطبقة سميكة من الأعشاب، أشجار تعرّشت، وأخرى مَدَّتْ فروعَها في كافّة الاتجاهات، الطيور تروح، وتجيء ماحيةً الحدودَ الّتي أقامها البشرُ بين الأراضي الزراعية، السماء زرقاء، تمتدُّ في جميع الجهاتِ كدوائِرَ مسوّرة الأفق وهناك، ليس بعيدًا عن الجبل الذي غطّاه الضَّبَابُ تشكّلَتْ غَيْمَةٌ.

مساء ذلك اليوم باعَهُ إلى أحدِ أثرياءِ القرية؛ لكي يتصدَّقَ بلحمه، اقتادته زوجته، وربطته في المذبح، لكنّ

الرجال عادوا يدعونها لأنهم فشلوا في تكتيفه!

فيما بعدُ لم يستطعْ أهلُ القرية نسيانَ هذا المشهد:

وهي تكتِّفه، كان الثور يتشمَّمُ ثوبها هادئًا، وحينما انتهت أخفت وجهها بكفِّها، ثمّ أجهشت باكيةً.

طَرَفُ الْعَبَاءَةِ

«علي المجنوني»

كنت أتبع أمي ممسكًا بطرف عباءتها، أتلفَّعُ بها في وجه الشمس، أمسح بها عرقي، أنظِّف بها أنفي عند الحاجة، أفعل كلَّ شيءٍ، بشرط ألّا أتأخّر خُطوة، أو نصف خُطوة، فتكتشف هذا. مرّات أرغمها على الوقوف؛ أشدّها من طرف العباءة، فتتوقّف كصخرةٍ كانت تتدحرج، كأنني ممسكٌ بها بلجامٍ. أشير إلى دكانٍ، أو عربة بائعٍ جوّالٍ، أو صبيةٍ يلعبون؛ تنظر في طلبي الذي يكون صامتًا في أغلب الوقت، ثم نواصل السير في الشوارع الضيّقة. مرّات كثيرة ترغمني هي، تقف فجأة، فأصطدم بوِرْكِها، أو أطَأُ قدمَها؛ تلعن الذي خلّفني، في أحسن الأحوال كانت تقول شيئًا عن المَحْقِ والبَرَكة.

السيارات ترشقنا بكلماتٍ مُرَّة، بعض المرارة يسبقه توَدُّدٌ سخيفٌ، وغادر، لم تحكِ أمي عن هذا لأحد، ولم تشرحْ لي شيئًا؛ من ناحيتي لم أعلّق.

كانت تحمل معها ذلك اليوم ما تحمل من قهوةٍ، وتمرٍ، أو لبنٍ تصدَّقَ به أحدٌ علينا، علفُ الجارات. يقضين الضحى بعد التهامه في قضم الحكايات ولَوْكِ الأسرار، يظللهنّ بيتُ أبي دَلادِح. أبو دلادح عاطلٌ عن كلِّ شيءٍ، يفرح بي كلّما زرناه. لم يقُل هذا أبدًا، لكنني كنت أقرأ عينيه بوضوح؛ ربّما لأنّي الذكر الوحيد الذي يتسنى له رؤيته، أسأله أن يقصّ عليّ حكاية مُصبِّغ آذانِه بالدمّ، فيسكت قليلًا، ويعتذر لي ضاحكًا بأنه نسي، أنسَتْه السبعون كلَّ شيءٍ ما عدا التمر والقهوة. يستلقي على ظهره في أيَّة غرفة من غُرَفِ البيت، وينصب ساقًا فوق ركبة، يغنّي مقاطعَ بائسةً لا تكتمل أبدًا، ويطلّ على الصالون كلما نقص عنه الزاد. لا يرفع ثوبه إمّا انزلق عن

فخذه إلَّا أن تنهره ربة البيت:

- أبو دلادح! لا حيا ولا (حشادة)، لا من الله ولا من خلقِه!

تزوغ نحوه الأعين، فيغطي ما انكشف من عورته ببطء، قليلٌ ويستأنف الصالونُ ضوضاءَه، ليس هو وحده، أنا لم أُترك، قالت إحداهن لأمي التي لم تبدِ اكتراثًا:

- وِرْعك هذا شُحْط. شوفي إيش طوله!

وأردفت أخرياتٌ بتذمّر:

- إي والله! لو تجوّز.. يمدي ولده يباريه!

يزفرُ الصالونُ من بين الحكاياتِ والأسرارِ روائحَ شتى: بخورٌ نافذ، وأعشابٌ مخلوطة، ومطحونة، وروائحُ تنطلق من الكُتل التي تكاد تلتصق بالأرض، العجوز المستلقي على ظهره يشاركُ أيضًا، تدور الروائح، وتدور أجسادٌ غاية في اللطافة. تتلاشى أخيرًا بعد أن تبعثرها

المروحة، أو ينهكها الحَوَمانُ فوق الكتل.

ذلك اليوم سألني أبو دلادح عن أخبار الرجال، كنت أحكي له عن الأيادي التي تبذر الحقول بعد المطر عندما ارتفع شخيرُه؛ قمت متَّجهًا إلى الصالون حتى وصلت بابَه، وهناك انقضّت عليَّ عينا مليحة كعَيْنَيْ سحليّةٍ بائضٍ لا تطرفُ إلّا لتواصلَ التحديقَ بحِدّة أكبرَ. هي المرأة الأكبر سِنًّا، المرأة التي يتحلّقن حولها، وهي تَمُدُّ رجليها الناشفتين كاللحاء. تقتصد في كلامها الذي يتفرق ما بين نبرة الأمر، ونبرة النهي، كانت تتكلم وقتها عن الوِحام؛ سدّت أنفها بأصابعها، وقادت نظرَها نحو القاعداتِ، ففهمتُ أنها تتّهمني بريحٍ لم أطلقها، رأتها القاعداتُ، فسددن أنوفهن واحدةً، تلو الأخرى، أجزم أن نصفهن لم يشمُمْن شيئًا. فقط أكملن ما بدأته مليحة، ثم صاح صوتٌ فيه تقرير:

– هذا اللي بقي!

وصاح آخر:

- وِرْعك يا غنيّة.. ما ربّيتيه!

فار الدم في وجهي لما وقع نظري على وجه أمي. قفزتُ إلى وسط الدائرة هائجًا، حاولت إحدى القصيرات منعي؛ ضربتُها على يدها، هبّت الكتلُ من مقاعدها، وصاح الصائح، فدفعت بنفسي للخارج؛ لم أهتم للقصيرة مرة أخرى، وهي تمنعني من الخروج، كانت بناجِرُها العريضة من ذهب تجلجل وهي تخدش معصمي.

مرقتُ من الباب الأخير، ولم أدِرْ وجهي نحو مجلسهنّ، بل واصلت طريقي في شوارع القرية. أثناء ركضي اعترتني نشوةٌ بأني أصبحت من عِداد الرجال، وضعت ثوبي في فمي واخترقت النهار. أعثر وأقوم؛ في عثراتي أقترب من الأرض، أسمع صيحاتِ الرجال يبذرون الحقول، يبنون البيوت، يفتحون الطرقات.

أنظرُ راكضًا للدم ينزُّ من خدوش معصمي، تنتشي لسعةُ الذهبِ في دمي، وأُصابُ بشيءٍ يشبه الضحك.

شَارِعُ الجَمالَة

«علي طاهر زيلع»

خلعت مدرعتي القطنية المبتلّة بعَرَقي قبل أن أطأ مدخل البيت، حملتها في يدي، ودخلت لاهثًا أشعر بالاختناق، والرغبة في خلع كلّ ملابسي. كان سلطان الشمس في سمائها الصيفية ضاربًا أطنابه في الداخل والخارج، أحسّ الآن، وأنا أدلج إلى البيت أن قرصها اللَّاهِبَ ما زال مصلتًا فوق رأسي. كلّ شيء في ذهني قد ذاب مع قطرات العَرَق المنهمرة بغزارة، ما أفكر فيه الآن يتركَّز حول نسمة هواء، وكوب ماء بارد.

دخلت، فرأيتها خارجةً من العِشّة إلى سقيفتنا المفتوحة من كل جوانبها، غارقة في عَرَقِها، فقد كانت تستدبر المدخل مولية شطر السقيفة التي بدت وكأنها

ستشتعل دفعة واحدة، الشمس في كلّ شِبْرٍ من بيتنا. في تلك اللحظة الوجيزة التي لمحت فيها زوجتي، وجسدها المترجرج في رَتَابَةٍ، وضَجَر. أبرقت في ذهني صورة شبابها!!

ما أشدّ ما تفعل الأيام بالأشياء!! سمعت وقع قَدَمَيّ؛ التفتت دون أن يبرحَ وجهها تعبيره المتبرّم الكابي، قلت لنفسي: حرارة الجو هي الأقوى من كل المشاعر، وددت لو أرى ظِلّ بسمة على ملامحها، فتحت عينيها بطريقة خاطفة، وهي تضع كفها على جبينها، وكأن قرص الشمس يخترقه، كانت أكثرَ سُمْرَةً، وإيحاءً بالشيخوخة! اجتاحتني رغبة لرؤية وجهي أيضًا؛ لكنَّ شعوري بالحاجة إلى الابتراد ما لَبِثَ أن طغى؛ لَوَتْ عُنقها، واستأنفت مشيتها، وانحناء قوسها إلى الأمام، بشكلٍ أوضحَ. لمحت طيف قوامها منذ عشرين عامًا، واختفى في طيات الذاكرة بأسرع من لمعة برق في ليل غابة لا

نهائي.

بَصُرْتُ بجرّة الماء هناك في ظلّ العشة جافة، قد تيبّس طُحْلُبها العالق بأسفلها، محتفظًا باخضراره الآخذ في الشحوب، لا أثر لوجود ماء بداخلها، راحت عيناي تبحثان في قلق عن وعاء مملوء بالماء، كانت كلّ الأوعية مرميةً مهملة: إذن لا ماء، كان لا بُدَّ أن أسألها، لكنَّ تجاهُلَها لي جعلني أتردّد! سألت نفسي بسخرية: لا خصومة بيننا، لم نتشاجر منذ زمن! فكرت ما الذي جعلها تتجاهل وجودي الآن! وقفز احتمالٌ قَوِيّ!

نظرت إلى مدرعتي المسدلة في يدي؛ لا شيءَ غيرها هذا هو السبب، هذا هو السبب، فهتفت:

- يا سُعْدى...!!

همهمت ولم تبرح مكانها!! رأيتها تنحني هناك، وتلتقط شيئًا بصمتٍ، وسأم. حبست أنا أسئلتي، وشرعت أبحث عن ماء في كلّ الأوعية، لا وجودَ للماء. الزير

الكبير ينتصب أيسرَ السقيفة جافًّا مكشوفًا تحت شمس الظهيرة، تركته إلى تعريشة، مكان شجرة تهاوت أوراقها الصفراء في بداية الصيف، تحتها براميل طينية نملؤها بماء أقربَ طعمًا إلى ماء البحر، لأجسادنا وثيابنا كانت خالية تمامًا، أحسست بازدياد وطأة الحَرِّ والعطش، دلفت إلى السقيفة، كانت هي قد جلست على الأرض ترقّع ثوبًا قديمًا، وجهها يرشح ماءً تمسحه بطرف ذلك الثوب البالي. جلست وراءها على قعادة القيلولة، أقول في هوادة: لا توجد قطرة!!

قالت دون أن تحوِّلَ وجهها:

- ولا يوجد أيّ شيءٍ آخرَ.. أنسيت؟

تذكرت تقريرها في الصباح الباكر عن حاجات البيت الضرورية التي نَفِدَتْ:

- لا ماء، لا طعام، لا قهوة، لا.. لا..

داريت بقولي:

– لا، لم أنْسَ؛ أجبرني الحَرُّ على العودة، أما عن الماء، فلم تصل قوافله حتى الآن، كلُّ الناس هناك في الميدان ينتظرون ومن العادة أن الأوعية لا تَجِفّ كلها على هذا النحو.

زفرت:

– ولكنها جافّة كما ترى.

ثم لاذت بالصمت. هبت نسمات، ملأت رئتي، شعرت ببعض الارتياح الجسدي، تسللتُ خارجًا دون كلام؛ سالكًا شارع الجمالة نفسه، إلى السوق، على امتداد الشارع الضيق الطويل، كانت أبواب المنازل الواطئة مُشْرعة، قد وقف أصحابها في أفيائها الهاربة، ينتظرون قوافل الماء في يأس متحدّر مع قطرات العرق. لم أرَ الشمس غضبى كاليوم، خُيِّلَ إليّ أنها تسكب شلَّالًا زجاجِيًّا مغلِيًّا. شممتُ من أرضية الشارع وأوراقه، ونفاياته الفقيرة رائحة اصطلاء، وعلى بعض

الأبواب المشرعة عجائز لاهثات، وصبايا بوجوه ملوِّحة يسألن: ما باله قد تأخّر؟! اجتزت الكل، وكأنّي أصَمّ، ورأيت امرأة طويلةً بوجهٍ منشرحٍ كأنها خرجت للفُرْجة فقط، تحادث صبيًّا، وتشير إلى يدي المدلَّاة باسمةً، تذكرت أنني أحمل مدرعتي، خفضت رأسي مداريًا ببسمات مغتصبة؛ شربت من ذلك الوجه نظرة عَجْلى رغم جبروت الشمس، وطيف سُعْدى لمعت في ذهني كوَمْضة خاطرة حَمْقَى: كيف تقترب الأشياء الجميلة عندما يصير المرء مُجْبرًا على الابتعاد؟!! باغتتني حسرة إضافية، هأنذا أمشي الآن، ومعي مسافة هائلة تمشي، تتمدَّدُ بيني، وبين أشياءَ كثيرة. انعطفت مجتازًا ذلك الأنبوب الساخن مُفْضِيًا إلى ساحة (المحناط) لفحتني من تلقاء البحر هبّات ساخنة، لكنها أرحم.

الساحة مقفرة، في طرفها الغربي يتناثر الناس قيامًا، وقعودًا؛ ينتظرون جِمَال الماء، ومن ورائهم انبسط البحر

رهْوًا ساكنًا خاضعًا لسلطان الشمس، كان لوحًا من الصفيح الذائب لا نهائيًّا، لا نأمة في سوق المحناط، وفي البُعْد من الجانب الأيسر نهضت القلعة القديمة بأسوارها المثلمة، وسقوفها المفككة كئيبة مستباحة لسيوف النهار، بدت غامضة منقوصة؛ مثل كتاب ضاعت صفحاته، وبقيت دفَّتاه. القلعة القلعة.. القلعة هكذا يقول الناس وحسب، وفي أسفلها تحت أقدامها المتشققة يربض مستودعي الذي أعمل به حارسًا منذ سنوات، أراه من هناك قزمًا وطيئًا شحيحًا. رفعت مدرعتي نفضتها، وتحسّست جيبها الصغير، أتأكد من وجود المفاتيح، ها هي لا تزال في أمان. واصلت خطواتي واثقًا على شيءٍ من الوَجَل. عَبَرتُ الساحة إلى صفِّ المخازن الداكنة، كانت ملاقي الحبوب السَّعفِيّة مغطاةً بأكياسِ الخيش المفرودة، وعليها مثقلاتٍ من الأحجار الملساء، والباعة منكمشون إلى ظلال السقائق الهابطة، وقد

تمدَّد بعضهم على الحصر، وبعضهم يروِّحُ على وجهه بمراوحَ من الورق الكرتون، جاوزتهم خافضَ الرّأس؛ تجنُّبًا للأحاديث الثقيلة، والأسئلة عن قوافل الماء؛ لم يستوقْفني أحدٌ حتى حاذَيْتُ مقهى السوق، كان صاحبه منهمكًا في غسل أكواب الشاي، رآني متباطئًا، فناداني:

– هذا أنت أخيرًا، تعالَ يا رجل!!

كان جالسًا في حمأةِ الشمس، نصفُهُ الأعلى شبهُ عارٍ، وجلده الأصفر المبقّع، يرتخي في طيّاتٍ تحت صدره وخاصرته، حاولت إخفاء امتعاضي من أظافره المَحْشُوَّة برمادِ الفحم وفضلاتِ الطعام، وهو يدعك بها بطون الأكواب المصفرّة.

إنني أرتاد هذا المقهى كثيرًا، كان عطشي أقوى من هذا الإحساس المُباغت، تناولت إبريقًا مترعًا بماء دفّأته الشمس، شربت منه جرعة، والهبَّات البحرية جفَّفَتْ جسدي. نهض صاحب القهوة متوجّعًا، أمسك

بيدي، وجرَّني إلى داخل المقهى. جلسنا على كرسِيٍّ خشن الحبال، من ورائنا كوة صغيرة غربية تلفظ بعض الأنفاس، لعلّ النهارَ آخِذٌ في الزوال.

ثرثر القهوجي في مسألة الماء، والحبوب، والحر، كلها مجتمعة، لا تحتمل، من ناحيتي وجدت راحة في الإفصاح عن خَوَاءِ البيت، رأيت وجه صاحبي يتماوج متهلّلًا. سدَّد إليَّ نظرةً حَذِرَةً، وقال:

– ساعد نفسك يا رجل!!

فتحت فمي مستوضحًا، فبادر قائلًا بثقة: في وسعك أن تجلبَ لي كمّية من البُنّ، والقشر، والسمسم من المستودع؛ لن يكلّفَك الأمرُ شيئًا، أليست مفاتيحه معك؟! سيمتلئ جيبك، ويكون لديك كلّ يوم ما تحتاجه من الماء من غير عَنَاء.

حاصرني القهوجي، فلم أقلْ شيئًا، وجدت نفسي مثقلًا كأنّ حجرًا مُدَبّبًا يغوص في أعماقي، ثم يطفو.

وانكسار سُعْدى، وسلوكها اللَّامبالي، وقرص الشمس المُمَدّد فوق رأسي؛ لم أقاوم وهو يدُسّ في كفِّي شيئًا، وحينما شرعت في الخروج، قال:

- لا تُضِعِ الوقتَ في انتظار الماء!

- عندما يأتي الماء أكلّف عميلي بإفراغ نصيب المقهى في مواعينك، لَدَيّ هنا ما يكفي لأيام.

غادرت المقهى، وصوت أذان الظهر يرتفع بنبرة الاحتجاج والنصيحة: (الله أكبر، الله أكبر) كان صوت المؤذن مكتومًا، ولكنه نافذ بالغ.

في الطريق إلى المستودع، كنت متراوحًا بين الإقدام والإحجام، وتعاقبت صورة مخدومي صاحب المستودع في كلّ حالاتها السيئة، والحسنة، وفكرت: إنه هو نفسه أيضًا يبيع البضاعة القديمة بسعر الجديدة، ويجعلني شاهدَ زُور له. «أليس كذلك يا أمان؟!»، فأجيب: إنه كذلك يا سيدي!! درت على المستودع دورتين. كنت

خائفًا من الفضيحة فقط، وفي الثالثة اتَّجهت إلى شارع الجمالة من جديد وجدته نابضًا بالحركة. طلائع الجِمَال تقف قُبَالَةَ الأبواب، كان منظر الجِمَال يلخِّصُ عطشَ المدينة برمتها، وفكرت: كيف تقسو الشمس على هامات الساحليين؟! رأيت تلك المرأة الفارهة تحمل جَرّة ماءٍ بعد انتزاعها عُنْوَة من على ظهر الجمل. تحملها كطفل وعلى وجهها ذلك المعنى المُراوغ منذ قليل.. لا أدري لماذا تصوَّرْتُها أرملة! أما مدرعتي، فهي على جسدي هذه المرة، وعبرت شارع الجمالة متخفّفًا من مهمّة المساومة على ماء. وفي (الميدان) كنت على عَجَلٍ، طفت بالدكاكين، وملأت زنبيلًا كبيرًا بعثته إلى البيت مع صَبِيٍّ أجير. هذه أول مرة أكون فيها سيّدًا، حدّثت نفسي بذلك، وركض المستودع إلى مخيّلتي، تحسَّست جيبَ المدرعة، واتجهت إلى البحر عبر المسطاح حتى بلغت الشاطئ، استدرت يسارًا بمُحاذاة حيطان البيوت على

الشاطئ. الشمس تتخلَّى عن جبروتها اليومِيّ مُرْغَمَةً بعد الزوال، حيث تكون النسماتُ أنفعَ في الظلال. دُرْت على نصف المدينة أتلفَّتُ بين حينٍ وآخرَ، ومن قلبي تنطلق إلى مخيّلتي ألفُ عينٍ تترصَّدُني، وألف أذن مشرعات، فتهوى يمنايَ إلى جيب مدرعتي تتحسّس العربون.

عَبَرْتُ بأطفالٍ يعيثون في مياه الشاطئ الضَّحْلَة، ورأيت صبايا يغادرن أبوابهنّ الصغيرة بوجوهٍ مشوِيّة، ووجنات راشحة إلى البحر. يملأن أوعِيَتَهُنّ من مائِهِ الأُجاجِ الدَّاكن، وتطايرت روائح السمك المَقْلِيّ بزيت السمسم من بعض البيوت الصغيرة، وقلت: عسى أن تقلي سُعْدى السمكات التي بعثتها إليها الآن! أحسستُ برغبة إلى طعام، وصارت يمناي تتشبث أكثرَ من ذي قبل بجيب مدرعتي المكتنز؛ لكنِّي تماديت في نزهتي.

عبرْت الشريط الجافّ بين الشاطئ، ومبنى الجمرك

و (الكنداسة) مواصلًا السَّيْرَ حتى موقع (القازخانة)، وقد بدأت أشعر بالاختناق، والإعياء، فانعطفت شرقًا عبْر شِعْبٍ صغيرٍ، يصعد إلى التلال الشرقية بصعوبة قُصْوى؛ فلمّا بلغت قمة التَّلِّ الأوسط سلكت طريق الرعاة هابطًا إلى المدينة من جنوبها ممّا يلي القلعة. وها أنذا أمام مستودعي الأمين، أسأل نفسي لماذا أطلت المسافة إليه؟ لكني تشجعت حينما رأيت ساحة السوق و (المحناط) مقفرة، وتَبَدَّى ذلك المقهى الكسيح في طرف الساحة الغربي هاتفًا محرِّضًا نافذ الصبر، إنني أفتح المستودع في كلِّ وقتٍ ومتى أشاء، فأيّ وجهٍ للخوف، وأنا حارسه الأمين. كلُّ الحرّاس يفتحون بإذن، وبدون إذن؛ فأدرت المفتاح وفتحت.

في البيت، ونحن نتناول الغداء قالت زوجتي:

- غشُّوك « السمك سايخ، والسمن مغشوش»!

أما الماء الذي جاءوا به لنا، كأنهم اغترفوه من البحر

(والبن ما هوش بلدي).

تحرّك خنجر في أعماقي؛ فانطلقت إلى المقهى أتقاضى الباقي، قابلني الرجل بوجهٍ غاضبٍ وزمجرَ:

- ما الذي حملته إليَّ؟ حبوبًا، أم نملًا؟!

وأخذ يحكّ جلده، ثم قال وهو يستدير إلى بؤرته الموحشة:

- روح يا غشاش.

عدت إلى البيت، فوجدت زوجتي تحكّ جلدها، وتشكو من النمل، قلت:

- نمل؟!

قالت:

- جلبته معك.

رَنَّتْ في أذني كلمة القهوجي من جديد. «يا غشاش!».

غرقنا في الصمت، ونحن نشاهد أسراب النمل

تزحف في خطوط إلى شارع الجمالة؛ واخترق صمتنا نداءٌ حادٌّ من خارج دارنا:

– أمان، يا أمان!

رائحة القطران

«محمد الراشدي»

(١)

حين سألت عنه والدي؛ تراءت لي غيمة من الحزن تعبر بين عينيه، وحطت فوق أحداقه أسراب من الذكريات، وارتحلت نظراته نحو فضاء بعيد، تغضّن وجهه، تراخت أصابعه، ووضع فنجان قهوته على الأرض دون اكتراث، وقال وصوته كالنشيج: «مات هيازع»!

(٢)

كان سيداً للصيف والشتاء..

للحر والقر معاً!

يعصر الأخشاب في مواقد اللهب، ويرقب عبر سحائب الدخان قطرات «القطران» تنزل عبر مسامات

الخشب المحروق، وتهبط قطرة قطرة في آنية ملؤها السواد والصدأ، وحين تطفح الآنية بقطرانها؛ يطفح الفرح في صدره المكتنز بالربو والسعال ومكابدات السنين!

كان يوزع رحيق الأخشاب ذاك في علب الزيت النباتي المستهلكة، ويبتعد ركناً قصياً في سوق الأحد، وحين تعبق روائح القطران النافذة؛ يغدو ركنه القصي مزار الذين يدركون أن (طلاء هيازع) رائحته لا يشبهها شيء آخر، ووحدها تلك الرائحة كانت الحدث الفصل في جودة طلاء هيازع عن سواه.

زبائنه يشرعون أغطية العلب، يقربونها من أنوفهم؛ وحين تضرب الرائحة أقاصي رؤوسهم يبتاعون حاجتهم من الطلاء حتى إذا ما نفدت العلب؛ أحرق «هيازع» سيجارة احتفال، ورفع عقيرته بطرق جنوبي فاتن: (كثر الهبايب تنزف الما من القاع)، ولوى غترته المغسولة

بعبق القطران فوق رأسه المحترق شيباً، وتوارت خطواته في زحام السوق.

(٣)

وخارج السوق كان «هيازع» سيرة دائمة فوق الألسنة ورسماً لا تخطئه العين فوق جلود الدواب، ولوناً قانياً على الأسرَّة والآنية الخشبية التي تطلى بالقطران كي لا تنخرها الحشرات، ورائحة تنفث من مفارق الصبايا حين يكرع القمل من دماء هاماتهن! كان ترياقاً وزينةً ودفئاً!

في الصيف حين تتقيح الأرض دوداً ودواب صغيرة تعلق بجلود الأغنام وتنهش ظاهر أجسادها؛ تفرك جلودها بطلاء «هيازع» فيعافها الدود وتهنأ في مطارحها.

وحين يعوي الشتاء، وتذرو نسمات الشمال شظايا البرد في أديم الأرض، ويمضغ الزمهرير عجاف القطعان، وتغدو الجيف مآدب الدود ونتن الدروب؛ تفوح في الزرائب رائحة القطران؛ ويسكب دفْأَهُ فوق

ارتجاف الدواب فيشعل في أصوافها الدفء حتى يجف الشتاء!

(٤)

في الضحى، كان السؤال يتفشى كالحمى، وكان الغياب «هيازع»!

الروائح التي تضوع بها المكان باكراً، البرك، الريحان، البعيثران، لم تكن لتمحو من الذاكرة رائحة القطران؛ واشتعل جوع الأنوف المشبعة بالشوق لعبق الأخشاب المحروقة، وحين تقاطروا صوب ركنه القصي، كان «هيازع» حزن المكان الخلي ورعشة الأسئلة الحيرى، وجفناً واكفاً بماء الفجيعة والفقد! والذي أنبت في بياض الضحى شوك المواجع لم يزد أن قال: (مات هيازع)؛ فانطفأ في وجوه القوم فرح النهار وغرقوا بأحزانهم، وحين أفاقوا اشتعلت فوق شفاههم الأسئلة ... متى؟! وكيف؟! وتصحرت الشفاه بالعجز والألسنة تمضغ

الحيرة وقد تعذر اليقين؛ ولم يظفروا من مطر السؤال بغير الجفاف، ومذ ذاك تداولت الألسن قصصاً شتى، وابتكروا للحيرة سيراً تؤرخ للموت وترصد تفاصيل الغياب، ومات «هيازع» مرة بعد مرة، وبات الموت حقلاً خصباً لجوع الرواة؛ وحكاية لزجة تنصب في لهفة الآذان، ولا تؤول إلى نهاية أبداً!

(٥)

قالوا: توعده الجمر يوماً، واحتطب أصابعه؛ فلم يكترث.

واشتوى جدب شفتيه فلم ينطفئ.

وأذاب سحنته فانتشى..

وحين انتهز الجمر غفوته ذات صبح دثره اللهب...

(٦)

قيل: كان صلباً كالحجارة!

قالوا له: لا تقرب هذه الشجرة، هنا افترع سيد الجان

أنثاه واتخذا من أغصانها مرتعاً ومقيلاً، فأوسعهم صمتاً، وتدفق به فجر نقي إلى جذعها، وحين غمس فأسه في أقرب أغصانها لم يبقَ إلا الفأس، ونواح الريح، وأصداء صرخةٍ، قيل ظلّ يسمعها كل من تفيأ تلك الشجرة حيناً من الدهر؛ قبل أن يكف الناس عن البحث عن رجل ذاب كالسراب، وبقيت صرخته، وفأس مغروسة بغصنٍ ينزف منه سائل بلون الدم، ورائحة القطران!

(٧)

قالوا: كان عاشقاً!

تهادت فتنتها بين يديه ذات سوق، وهبها قطراناً بلا مقابل، وحين انكفأت تحمل بضاعتها، فرت حمائم الصدر من خدرها وحطت في جوع عينيه فاقتفى خطاها، ورهن كل أخشابه مهراً لفتنتها وحين استبد به الحلم، قالوا له: لكفيك رائحة الدواب وأنت عود محترق!

فاضطرم قهراً، وليلتها ألقى في أحشاء اللهب بكل

عود لديه، حتى إذا نفد الحطب واللهب يتراخى بحنق، تجرد من أسماله ونعليه وطوح بها في النار، ثم تقدم ناحية النار وأحداقه تستف الجمر، وتموج في مقلتيه الحرائق؛ حتى إذا اكتهل الليل كانت ألسنة النار تلعق أضلاعاً من الفحم!

(٨)

نهشوا سيرته ذات يوم فقالوا:

أبت أن تواري سوأته الأرض، كلما شقوا صدرها فاض في الأجداث قطران نتن الرائحة؛ ولما استيأسوا أجمعوا أن يغيبوه في إحدى الحفر الطافحة بالنتن والسواد، وحين هوى الجثمان في الحفرة تطايرت قطرات السواد فمن مست جسده اكتسى سواداً يلازمه حتى الممات، ولما بدأوا يهيلون التراب، كان التراب يذوب في القطران ويختفي، والجثمان طاف على فوهة القبر، والقبر يستعصي على الردم أو الانغلاق، فتركوا

الجثمان سابحاً ومضوا؛ ويومها ألهب الظمأ قلوبهم وضجت منه قطعانهم، وكلما وردوا الماء فاح برائحة أشبه بروائح الجيف، فقالت «أم هيازع»: ذاك شؤم هيازع إذ تركتموه في العراء جيفة بلا قبر يلم عظامه؛ فاجتمعوا، واتفقوا أن يطمروه مهما كلف الأمر، وحين وقفوا بقبره ألفوه مدفوناً برماد كثيف ما يزال ساخناً!

(٩)

ذوي كغصن شرده الهجير من أذرع الدوح حتى هوى منكسراً وبالياً فاستـفَّـه التراب!

يومها تيقظ قبل يقظة النور، أعمل فأسه في أعناق الحطب حتى استوى قطعاً متقاربة الطول، مد حبلاً قصيراً تقشرت أطرافه، رص أخشابه بعناية فوق الحبل ثم طوَّقها به وحزمه بقوة وأصابعه المحروقة تنزف دماً أسود، يتخثر ببطء حول أظافره المتكسرة، تمازجه ملوحة عرق جبهته الذي يمسحه بأنامله، ثم ينكفئ ويطوق حزمة

أخشابه بكلتا يديه، وبحركةٍ سريعةٍ يرفعها فوق رأسه، يختل توازنه، يعود خطوة إلى الوراء، يتماسك واقفاً ثم يتقدم بخطى ثقيلة نحو موقده، يلقي بحزمة أخشابه.. يشبك كفيه وراء ظهره، وينثني للخلف متحاملاً على آلام ظهره، وتعب طاحن يستعمر كل جسده، يفك وثاق أخشابه ويتناولها عوداً عوداً ويرصها داخل الصفيحة الملأى بالثقوب، ثم يضعها على فوهة الوعاء الذي يقطر بداخله القطران، يوقد الحطب؛ وتسعل النار في وجهه دخاناً كثيفاً، يملأ أنفه وصدره، ينصرف بوجهه إلى الخلف؛ يكح دماً وبصاقاً كثيفاً وبلغماً، يبصق ما تجمع في فمه، ويجثو على ركبتيه، ويستند على يديه، ويستفرغ سواداً.. ويثور به سعال حاد يشق حلقه كالنصال، يصرخ ويقطع السعال صراخه، يهوي على وجهه، يغمر التراب أنفه وعينيه ويملأ فمه، أنفاسه العجلى تشد التراب إلى أنفه وصدره يختنق؛ يرتعد جسده لبرهة ثم يسكن بلا

حراك ...!

وحين دنا المساء كانت شمس الأصيل تعكس ظلاً قصيراً لعودٍ نحيل من الخشب، يعلو نتوءاً من الرمل يغطي حفرة شقها على عجل عابرون مروا هنا، وأسرعوا بدفن جثة توشك أن تتعفن لميتٍ مسجى فوق التراب، طمروا رفاته بالرمل والرماد دون أن يدروا من هو!

(١٠)

قالوا: بعد أن مات « هيازع» لم يعد يأتي الشتاء!

الرَّاكِبُ

«محمد علوان»

لا يمكن لسُكّان قرية «آل فرحان» أن يتسلَّلَ إلى عيونِهِمُ النّومُ إلّا بعد سماع الصّراخ اللّيْلِيِّ المتبادل بين «فائع»، وزوجته القصيرة قياسًا لطولِهِ المُفرط. معظم الأيام كانت تحزم رأسها بالمنديل الأصفر فوق «الشيلة» السوداء. قيل إنها امرأة يعاودها الصداع بين آونةٍ وأخرى، وقيل: إنها مَشْرِقِيّة في أصولها، ولا دخل للصداع، وقال آخر: إن المرأة إذا لم «تغطرف» في الليل، فإنها تعصب رأسها، فهمت لحظتها أن فائعَ لا يملك الطول إلَّا في ساقيه.

حين كان يعود من (سوق الأحد)، حيث تنمو الشَّمْسُ كلّ يوم؛ يعود مُنهكًا، ساقاه تكادان تلمسان

الأرض، وحمارته المُثْقلة بطوله تفتح فمها الواسع، كنا ننظر إليه ببسمة خادعة، أو ضحكة خائفة. هذه الليلةُ مستثناةٌ من الخِصام، ويعرف سكان القرية أنَّ غدًا «سوق الإثنين»، حيث ينام فائعُ وحيدًا، وتخرج زوجته غداةَ يومِ السوقِ بلا عصابةٍ، تبيعُ، وتشتري بدلًا عنه.

كاد الموت أن يقترب من هذا الطويل، اليوم الثاني أمسك بتلابيبه، اليوم الثالث مات فائع.

حيث أقدم أهل القرية على غسله للمرة الأخيرة، صاحت زوجته وقد وضعت عصابة سوداء فوق المنديل الأصفر، صاحت بصوتٍ هزَّ أرجاءَ القريةِ:

(عليكم وجه الله! لا تغسّلوه بالماء البارد، فهو لا يحبه)!

فَارِسُ أحلام الفَزَّاعَات

«منصور العتيق»

الفلاح(منيف) قال لي ذات ليلة بتكتّم شديدٍ:

– الحقل حقلي، وأعرفه جيّدًا، لست مسؤولًا سوى عن فزّاعة واحدة؛ لا أعرف من أين أتى كلّ هؤلاء!

رغم تراكم كلِّ هذه السنين، سنين الصحراء التي لا يشبه طولها طولًا، إلَّا أنَّ أغضانَ مقرن التي تركها قبل اختفائه البعيد، لا تزال معشبةً في صدري!

لا أعرف ما الذي يدعوني إلى تَذَكّره الآن، لنَبْشِ قصته من جديد؛ لتذكُّر تلك الأحاديث القديمة (بتفاصيلها أحيانًا)! التي أكلنا بها طول الليالي البعيدة تلك. أهالي القرية لم يبذلوا من ذاكرتهم ما يليق باستضافته، الرجال شاخوا، وشاخت معهم(هجينيات)

مقرن شاعرهم القديم، نساء القرية يعتذرن بالخجل المفتعل عن الحديث الذي كان لذيذًا ذات يوم، شباب القرية كانوا أطفالًا آنذاك: لم يحزنوا بعد، ولم يتخيّلوا إناثًا جميلاتٍ؛ لذلك لم يجدوا معنًى للالتفات إلى ذلك (الهواوي) الذي يهيم في الحقول، ويجود بقصائده للريح، للظلام، وللفزّاعات فيما بعد.

أذكر أنني في غَمْرَةِ انتشاء القرية بمقرن؛ كنت أخاف عليه منها. عندما لفظته القرية خِفْتُ عليه من الريح، من المزارع التي يلجأ إليها شمال القرية. من فزّاعات الحقول، وقبل أن (يتلاشى) أودع حكايته لَدَى منيف؛ فخِفْتُ على الحكاية... منه!

منيف.. الفلاح الذي يملك كلّ التفاصيل، قال لي:

- بعد حادثة الشيخ (بسّام) صار مقرن يتردّد عليَّ كثيرًا، يخصُّني بالحديث، وبالشاي الذي يصنعه هو شخصيًّا، يتقرّب إليَّ كثيرًا، توقعت أنه ينوي الزواج من

ابنتي (هيلة)، لا أخفيك (استعدّيت) للعُرس، وفرحت، بل وبدأت (أجهّز) هيلة. لكن الوقت مرَّ، ولم يذكر مقرن شيئًا، لا عن العرس، ولا عن هيلة. إنه لا يتحدث عن النساء مطلقًا.. أذكر مرة زلّ لسانه باسم (سارة) على ما أذكر، لكنه اعتذر كثيرًا، وصار يَزِنُ كلامه بصورة ثقيلة.

مثل حكايات الطفولة هذه القرية، ومثل أبطال الحكايات أهلها يؤدون دورهم المحدّد ويذهبون، يتوارون بعيدًا.. يتلقفهم النسيان.

الشيخ بسَّام وحده هو الفاعل دائمًا، وهو من يُبْدي رأيه في كلّ شيءٍ دائمًا:

يرسل إلى الكواليس أولئك الذين يعتقد أنهم قاموا بدورهم كاملًا. ويرسل إلى ما خلف الشمس أولئك الذين يعتقد بأنّ أدوراهم لا تحتاجها القرية.

(مقرن) حتى بوصفه شاعرَ القرية الوحيد لم يكن استثناءً من قواعد الشيخ بسّام تلك؛ بل كان الخيار الأول

لمجهره، وأحاديثه المقتضبة المتجهّمة. لم يكن مقرن رجلًا جماهيريًّا فحسب، إنما كادت القرية أن تسبِّحَ بحمده في يوم من الأيام، كادت أن تقيم ولاءات الحياة له، أن تفتعلَ الأفراح المؤجّلة؛ لكي تجدَ له مبرّرًا للغناء.

كان الشعر قبل مقرن إكسسوارًا رديئًا للقرية، لا تحتاجه إلَّا لِمامًا، أو قد لا تحتاجه مطلقًا. كان الشعر(موظّفًا) رسميًّا يتقاضى راتبًا مقطوعًا بحسب مرات الثناء، والمديح الكاذب، وفي المساء يصير غزلًا لا تحفِلُ به الإناث: حديث عن الكحل والثوب المُوشَّى، والعين العظيمة عن الشَّبَهِ الغَبِيّ بالقمر، ولا شيءَ غير هذا!!

(هجينيات) مقرن جعلت القرية تتنفّس الشعر، وتثق به. عادت القرية تعرف دموع الرِّثاء، وقيمة المديح. النساء أجَّلن رغباتِ أزواجهنّ على قارعة الحديث، وتذوّقْن ببريق العيون لَذَّةَ الغزل. مقرن(يتغزّل) بقلبه.

علَّمَ القرية أصولَ تذوُّق الحديث، الحديث الذي كان الرجالُ لا يجدون الوقت له في خِضَمّ الرغبات الليلية المتدافعة.

جعل مقرن القرية تصحو كلّ صباح، وتشارك الفلاحين العمل. جعلها ترتدي الثياب الجديدة، وتنسى الشيخ بسّام، وتنسى أمراضها المزمنة. كنت ألحظُ كلّ هذا في تردُّدِي الشحيح بين القرية والمدينة، وأتعجّب:

- كيف يستطيع مقرن فعلَ كلِّ هذا بالقصائد.. بمجرّد قصائد؟!

الفلاح الفقير منيف لا يمثل سوى ألم القرية اللَّازم ليعيشَ أغنياؤها بارتياح. عندما يجدني مهتمًّا بحديثِهِ يسترسل بحماس، ويُغْدِقُ التفاصيل:

- سأكون صريحًا معك، عندما طلب مني مقرن الزواج بسارة، تلك التي تَغَنّى بها أمامي، ظننتُهُ يمزح، قلت:

- وهيلة؟

ففوجئ، وكأنه يعتذر. قال إنه يريد سارة، ويحب سارة. حين قلت:

- ومن تكون سارة؟ قال:

- فزاعة حقلك يا منيف!!

يشعر منيف بالحرج. يفتعل سعالًا يملأ به الصمت الثقيل.. ويواصل الحديث. لا أنكر أن ما فعلته يُعَدُّ استغلالًا رخيصًا، مقرن(هواوي)، وقلبه (قلب عصفور)، لكن لم أتفهَّم مشكلته. أغرتني الحاجة، فقبضت المهر كاملًا. تصنَّعْتُ الفرح، وقلت:

- (الساعة المباركة).. (سارة لك)!

آه، كم يمزقني الخجل أمام نفسي! أنا الذي أقول إن القرية تظلمني باستمرار؛ استغل الفرصة الوحيدة وأظلم مقرن!

المزيد من الحَرَج، ومن افتعال السُّعال، ومن

التفاصيل أيضًا: سلمته إلى عروسه بعد أن نحّيتها إلى مكان تستريح فيه ظلال الحقل دائمًا. حين عدت كنت أثقل على خطواتي؛ كأن قرية كاملة تستريح على كاهلي. تألمت كثيرًا، أكثر من ألم خبز يابس يخدش جدار معدة خاوية. وأكثر من مرارة شاي الفقراء البائس.

أقنعت نفسي -عبثًا- أنني أسلم (قلب العصفور) إلى فزّاعة مختلفة، تعرف طريقة تحنو بها على العصافير المؤدبة. لو كنت عاقلًا لقلت إنها الحاجة الملعونة التي اضطرتني لكلِّ شيءٍ، الحاجة الملعونة فقط.

هكذا إذن!!

مقرن لم يتألّم لأنه هُزِم.. تألم لأن خصومه لم يحتفلوا بانتصارهم، تألّم لأنه مَرّ كقصيدةٍ تقليديّة، لا احتفالَ لها، ولا غناءَ.

لا أزال أتذكر (حادثة الشيخ بسام) ومساءها العكر. ذلك الاحتفال الذي غيّر كل ما بعده هنا. كان (عرس

ابن راشد) يتخلص من مجاملاته، ويستعد لتسليم دفته إلى مقرن، وبدأت القصائد تمطر وكأنها غيث مختلف ينبت فرحًا أكثر، دهشة أكبر، رقصًا أكثر جنونًا! فصاح الشيخ بسّام في الجميع أن على مقرن أن يتوقف عن تدنيس احتفالات القرية، وابتذال (زواجاتها) المباركة. قال إنَّ على الأهالي أن يتوقّفوا عن السّفاهات؛ ليبارك الله لهم في بنيهم. قال إن عليهم أن يتوقفوا عن دعوة (الهواوي) مقرن، وإلّا، فعليهم إيجاد شيخ آخر، يعقد لهم، يزوجهم، ويفرقهم.

لا زلت أذكر: الأهالي، وهم يتخلصون من مقرن تحت وطأة رتيبة، ينظفون ذاكرتهم خلف قصائده بدأب، ويختارون الخضوع باستسلام سهل، كأنهم تآمروا مسبقًا بإحكام.

كانوا، رجالاً ونساءً، يقيئون القصائد، ويكنسونها بقرف؛ يحاولون ادّعاءه وإجادته. يعلقون الملل

-باختيارهم- على سِحْنَاتهم، ويثقلون أكتافهم بالرَّتابة كانوا يكدّسون التّجهُّم في الطرقات، وفي السوق الوحيد حتى صار ليل (شارع عشرة) و(سوق العصر) يبدأ مبكّرًا: بعد الظهيرة ربّما.

عبثًا حاولت أن أفهم، لكن الشيخ بسّامَ كان يتراءى لي في كل مرة، شامتًا، متكبّرًا؛ والقرية تكمل مراسم الخضوع.

عندما يقرر (منيف) إنهاءَ كلّ شيء، يشهق قليلًا ويقول:

- بعد اختفاء مقرن صار أهالي القرية يتناقصون شيئًا، فشيئًا، بينما صارت أكتاف الفزاعات تتأهّب لعصافير الشعراء!

مثلما أسّس مقرن ذاكرة القرية بجدارة، عاد الغبار القديم للشيخ بسّام يطغى على كلِّ شيء.

كنت وقتها أقرر أنها عادة التردد الشحيح على القرية،

عندما حزمت حقائبي، وانطلق (الوانيت) إلى لا وجهة مؤكدة؛ مخلّفًا وراءه (شارع عشرة) إلى الطريق السريع، كنت ألتفت، وأطيل النظر.

كان (العجاج) يغطي القرية بنَهَمٍ، ويدفنها سريعًا في الأفق...

عائدٌ.... لِلوطن الصَّغِير

«يحيى امقاسم»

الشجرة، والجدار الصغير يلتصقان بالعريش كطفلين خائفين، يدُسّان وجهيْهما في حِجْرِ أمّهما.

• **أمس..**

جاء مشتري البقرة، أخذ حبلًا، وجرَّ ما تبقّى من العيش، ثم غابت الشمس خلف الشجرة، والجدار.

ثمن المبيع –البقرة– دفعته أمي إليَّ.. عربونًا للفراق!

سأشدُّ الرِّحَالَ، عليَّ أنْ أصبحَ جنديًّا، وأبعث مع العصافير بصورتي لأمي؛ سوف تعلّقها في زاوية العريش هناك تحت الفانوس كما قالت، وعادت تقول: (لا، هناك تبْتَلّ، وتغيب ملامح الجندي، بل سترقد تحت فراشي، وعند الليل آنسُ بالجندي، وبسترته الجميلة).

• **اليوم صباحًا..**

أضحت أسهمُ الوَداع قليلةً، لا قيمةَ تُذْكَر للرَّحيل.. أول المودّعين وآخرهم أمي.

حين نزوحي لم يكن هناك أحدٌ سواها، وشجرة تكادُ أوراقها أن تتساقط كالدموع.

أحيانًا الصمت يعني أشياءَ كثيرة مع العَبَرات التي جادَ بها قلب الحنان، وعندما أدبرتُ قالت أمي – وليست الشجرة –: الرحيل كالموت! هذه إحدى فلسفاتها في الحياة.

الصيف حلّ، وأنا أسيرُ مثقلًا بالبكاء، مودّعتي تحدّق في خطواتي...قريبًا سأغيب، أسمعها:(يا محمدُ، لا تدع السائق يُسرع! سيروا على مهل، حتى تُدركوا غايتكم بسرعة وأمان!) ..إنني سأستقلّ جوفَ طائرٍ يُحلّقُ شمالًا لو علمت!!

كانت يدي اليمنى تحمل متاعًا وزادًا، الأخرى قابضة على حقيبة صغيرة ظلت زمنًا تحت سرير والدتي، الحقيبة كانت منزوية هناك، حزينة على صاحبها -أخي- الذي غادرنا تحت الثرى منذ سنتين، فهي تحمل أقلامه الخشبية، وكراسه الجميل، وبعضًا من عطف أمه الحبيبة، التي أبت إلّا أن أثقل جراحي بهذه الحقيبة، لعلّي أعود قريبًا؛ ولا أوغل في النسيان والمدينة.

• **قُبَيْلَ السفر..**

دسستُ تحت فراشها ما نقدَتْني إيّاه بالأمس. همستْ: (إن كل ما ينبض بالحياة سوف يذْبُلُ على إثرك!)، تسمّر سؤالٌ أمامي: (ولِمَ كلّ ذلك؟).. عدتُ.. نفضتُ الأفكار، وقبَّلْتُ جبين الرضا على صفحة كفِّها؛ والحب يتضافر كحبَّات المطر على وجنتيها، أضافت متمتمةً: (أنت العمر) سؤالي: (ولِمَ كل ذلك؟) لم يقر

بمسمعها، لكنها أقرأتني الإجابة!

تسمعني آراءَها باكيةً: (بُنَيَّ.. الجهة شمالًا، فإذا جفَّتِ السبل سيُعاودك الشَّوْق، والحنين! رجائي عُدْ أدراجك جنوبًا نحو الأرض وجواري).

وأنا أستدبر المكان ولا مناص، استنشقت رائحتي وحبّات الغبار التي أثارتها خطواتي الثقيلة، ثم كرّرت: (الرحيل كالموت!).

قديمًا.. قال جَدِّي: «في معركة الحياة، الرجالُ هُمُ الذينَ يموتون، لا الذين يَحْيَوْنَ». ومشيّعة ركبي يلفُّها الرُّعْبُ؛ إنني الوحيد، فهل سأبقى رمزًا لعطاءِ الحُبّ من فؤادها؟! وسأبقى الوحيد يتسلَّق الشجرةَ، والجدارَ الصغيرَ؟!

أحلام الودودة تذوب، والجوع شيخٌ عتيقٌ في العريش، يهزُّ أركانه بالسُّعالِ والألمِ، وأنا.. راحلٌ لأعيشَ؛ وتعيش هي.

• **قبل سنوات..**

رحل والدي بعيدًا عساه يحيا، عاش ضعيفًا؛ لم يَدُم صمودُهُ أمام الحياة، فأراد الخروج بلا قيود، أو أراد الهروب، باختصار كما سمعت فضّل الاختباء!

سألوا: هل أرضه قاحلة؟ وفأسه على كتفه يريد أن ينتصب، فخرج للبحث؟

قالوا: إنه في قرية بعيدة جِدًّا، وقالوا: إنه مات!

الأمر سِيّان، قال ذلك قلب أمي، وقال: لن يعود أبدًا.

بعض الحقائق تصفع بقوة، وبعضها تغيب مع أصحابها، حقيقة أبي تقول إنه مجنون، كما سمعتهم يتهامسون في ليلة غابرة رفضت فيها والدتي عرض الزواج من مُغْرَمٍ قديمٍ.

وعندما انسلّ تاريخ الزوج من ترابنا؛ ظلت الزوجة تدثرنا أنا وصاحب الحقيبة بما تطيق من ذكرياته.

• **الآن..**

أتذكر في ليلة حصاد، طيور السماء حملت ابتسامة منزلنا، غاب خالد؛ فانزوتْ أمُّه تصرخ في صمتٍ، تهلّ العبرات، ويستكين الحزن لحظات؛ ليعود باعثًا الظلام من الداخل، لم تبْقَ من رائحة خالد سوى هذه الحقيبة التي أبَتْ الحبيبة إلّا أنْ أطعنَها بنظراتي بين حينٍ وآخرَ، عسى أن أعودَ سريعًا، ولا أغيب في البُعد والمدينة..

• **اليوم صباحًا..**

قبل الاختفاء.. خالجني شوقٌ للخلف؛ فأبصرتُ القرية الخائفة من أنياب المدينة، وشاهدت العريش حوله جدار، وشجرة يقف تحتها شبحُ آخرِ المُودّعين.

– **الجدار**: من طين.. نبت أساسه حول دارنا في أول يوم ألبس فيه غشاء الحياة.، بلع من السنين الشيءَ الكثير، وما زال، يشرب المطر، يشربه واقفًا بلا ارتواء.

- **الشجرة**: اخترق رأسها عرض الجدار، ثم تاق للسماء إلى أن ترعرع، وطال..

الشجرة تورق حينًا، وتتعرّى عند الحزن، أتسلّقها منذ نعومة أغصانها، ومنذ شباب الجدار. الطفولة.. لم أستطع أن أنثر كل صورها، إلَّا القليل منها مع أمي، ومع منزلي هذا، غاب بعض الحنين؛ لأن شخصي توارى عن كلّ ما هو خلفي.. وبَقِيَ الحنينُ عالقًا بيدي اليسرى. بقيت ساعة، وتحلق طائرتهم بدوني.. هل بعض النقود تكفيهم؟!

المطار ٣٥ كلم

قرأت هذه بسهولة تامّة، وكأنّ سائق السيارة سمع تحذير والدتي، سلحفاته تجثم على صبري، فتنهيه ولا أصيح. وصلتُ أخيرًا نقطة السفر، سألت: (هل بإمكاني أن أسافر إلى...؟).

أجابني الموظف بحنق: (اكتب اسمك في قيد

المنتظرين!).

كان الصباح رائعًا من القرية إلى المطار، أتذكر هذا..

• **الآن.. والليل ساكنٌ..**

أستند على جدار الطين من الخارج، الهواء يناغي أغصان الشجرة، أتذكر أحداث يومي هذا، وبعض الماضي..

• **اليوم..**

زأر الطائر، وحمل الجميع إلّا واحدًا لم يكن يملك قيمة السفر.

• **بُعَيْدَ الغروب..**

قالت ليلى: (مواعيد الليل مخيفة، وكذا لقاؤنا).. لم أعلّق،كان الفكر ساريًا، وأعاده فُلٌّ الصاحبة عندما

اقتربتْ.. تتعجب لِمَا استجدّ، ما هذه الحقيبة؟! ولِمَ هذا المتاع؟!

• **في هذه اللحظة..**

بجوار الجدار ـ من الداخل ـ تحت الشجرة.. على ضوء الفانوس الخافت تحسب أمي قيمة كيس الذرة الذي ستشتريه غدًا، أنصتُ قليلًا، بلّلتُ لوحة الجدار، والشجرة، ونور الفانوس بدموع ذرفتها عيناي على مهل. دلفت قدماي إلى الدار، احتجت للبكاء.. ركضت قبلات أمي على جسدي؛ دفنت وجهها في صدري، وكأن الرحالة عاد من غيابه الطويل، ولم يعد المعوز نهارًا، والعاشق ليلًا!

فلْيَمُتِ الخوفُ، لن تعولَ الرياح خارج العريش.. وأنت وحيدة ترجفين خلف الباب.

غدًا..

تسطر قدماي خطواتٍ كبيرةً في الأرضِ لأعيشَ..
وتعيشَ معي في الوطن الصغير..